

بحث انتقادي

في

مختصر في تاريخ سورية

تأليف الاب هنري لامنس اليسوعي طبع في المطبعة الكاثوليكية في بيروت سنة ١٩٢١ مجلدان من قطع الوسط في ٥٥٦ صفحة .

H. Lammens, S. J. : La Syrie précis historique — Beyrouth, Imprimerie Catholique, 1921; 2 vol. in-8°, 556 pages.

هذا آخر ما خطته انامل صديقنا الاب لامنس باللغة الافرنسية في التاريخ بعد ان نشر بها ابحاثاً في بعض خلفاء الامويين في الشام ونشر بالعربية كتاب تسريح الابصار في ما يحتوي لبنان من الآثار الى غير ذلك من الكتب الجيدة والابحاث المفيدة . وقد قسم تاريخه هذا ادواراً وقسم كل دور الى ابواب وفصول وندقه تنسيقاً جيداً بحيث يعثر الطالب فيه من يسر سبيل على المادة التي يريدوها والعصر الذي ينوي الوقوف على اهم حوادثه . وكتابه هذا مختصر للمدارس مكتوب بأسلوب رشيق وفي آخر كل صفحة المصادر التي يعزى اليها القول .

الكلام في هذا الوجيز على تاريخ الشام قبل الاسلام مختصر للغاية اما الكلام على عهد الاسلام فقد تصرف فيه المؤلف حسب الاحوال فتوسع في ما كان حتى كاد يدخل كتابه في عداد المطولات واقتضب في اخرى حتى اوشك ان يخرج مصنفه عن موضعه ويخل بتسلسل حوادثه .

استعمل المؤلف حريته في نقد الحوادث على اسلوب بعض المؤرخين المعاصرين ولكنه لم يكن الى جانب الصواب في كل ما انتقد وعلق ومثله على تمكنه من التاريخ لا يصعب عليه ان يورد حقائق تلقح عقل الطالب فكراً جديداً من تاريخ صحيح بري من مؤثرات المعتقدات وتصورات الخرافات . فيكون شأنه في الكتابة على العبر شأن

رجل خالي الغرض يكتب تاريخ الحروب الدينية في اوروبا مثلاً فلا يخرب للبرستانتين المجددين ولا ينجي على الكاثوليك البابويين بل يكتب الكوائن مجرداً عن الغاية فينال كلامه القبول من كل القلوب .

اما وتاريخه ستنادله ايدي الطلاب فالاولى ان مجرد مما ينافي الحقائق ولذا فانا نستطيع حضرة المؤلف بايراد بعض ملاحظات على تاريخه عسى ان يصالح في طبعة ثانية ما يوافقنا عليه حتى يكون كتابه تاماً من كل وجه متصفاً بالاوصاف المطلوبة في التاريخ فقد قال مونتسكيو في روح الشرائع : ان المؤرخين في الحكومات الملكية المطلقة المنتهية في اطلاقها يكذبون لانه ليس لهم حرية حتى يقولوا الحق اما في الدول الملكية المفرطة في حريتها فانهم يخونون الحق بسبب حريتهم نفسها التي توجد ابداً التفرقة فيصبح كل واحد منهم عبداً او هام حربه كما كان لو عاش في ظل مستبد ظالم اهـ .

فما لاحظناه ان المؤلف يأتي بجمل ينزعها من عبارات بعض المحترمين من الخلفاء والسلاطين والفاتحين وغيرهم قيلت في احوال خاصة لا تدرك على جليتها الا اذا ذكرت العبارة مع سياقها وسبقها فيأتى المؤلف بجملته من المقول بالعربية ويترجمها بالفرنسية ويستخرج منها موضوعاً قد يكون سبباً على قائلها ويستنتج من ذلك انها كانت دستوراً جرى العمل عليه مثل قوله (ج ١ ص ٦٠ و ٦١ و ٦٢) اخذاً عن الطبري من كلام عمر بن الخطاب « اخرب الله مصر في عمران المدينة وصلاحها » وعبارة الطبري لا يفهم منها كما ترى ان عمر امر بخراب مصر ليعمر المدينة وهذا نص عبارته : وجاء كتاب عمرو بن العاص جواب كتاب عمر في الاستغاثة ان البحر الشامي حفر لمبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم حفيراً فصب في بحر العرب فسد الروم والقيبط فان احببت ان يقوم سعر الطعام بالمدينة كسعره بمصر حفرت له نهراً وبنيت له قناطر فكتب له عمر ان اقبل وعجل ذلك فقال له اهل مصر : خراجك زاج واميرك راض وان تم هذا انكسر الخراج فكتب الى عمر بذلك وذكر ان فيه انكسار خراج مصر وخرباها فكتب اليه عمر اتمل فيه وعجل اخرب الله مصر في عمران المدينة وصلاحها فماله عمرو وهو بالقائم فكان سعر المدينة كسعر مصر ولم يزد ذلك مصر الا رخاء ولم يراهل المدينة بعد الرمادة مثلها حتى حبس عنهم البحر . »

وهكذا نسب اموراً للخليفة الثاني لا يوافق عليها التاريخ الصحيح ولكن المؤلف غريب في تسامحه واحكامه يحسن ظنه بيزيد وابنيه وينسب العجز الاداري لابي الخطاب (٥٩) فقد قال ان يوم الجابية افلست سياسته وان فتح الشام لم يكن بناءً على خطة مرسومة بل يراذ به غزو بلاد مفتحة الابواب ليس فيها شيء من اسباب الدفاع ! واحداث مشغلة للعرب ثم ادعى ان العربي اثبت انه جبان ضعيف في الجندية لا يفكر في غير المغنم وقال انه ظهر البدو « ٢٢٧ م ٢ » كما كانوا على عهد الرسول انهم وسط في الجندية مستعدون للنهب يجمعون امام الخطر . والهمري ان جندياً هذه صفته كيف يستطيع ان يظفر بالجندي المدرب المذهب التي من جنود الروم وباقراده ان جيش الروم يوم اليرموك كان ثلاثين الفا وجيش العرب خمسة وعشرين مع ان الثقات يقولون ان جيشهم كان اكثر من ذلك فقد قال البلاذري ان المسلمين يوم اليرموك كانوا ٢٤ الفا قتلوا من الروم ٧٠ الفا ومع ذلك علم حضرته ما كان من امر اليرموك ومن تفاشل ذاك الجيش العجيب بكل صفاته امام الجيش العربي الجبان الضعيف في اصول الكرو والفر البعيد عن كل تصور الا المغنم وكذلك كان حاله يوم نخل واجنادين وغيرهما من الوقائع التي انتهت بتغلب الجبان على الشجاع .

وقوله ان العرب « ص ٦٢ م ١ » تركوا للوطنين محكمهم ولسانهم ونظاماتهم البلدية ونقسياتهم الادارية وابقوا في البلاد من لم يستطع من قدماء الموظفين ان يلحق بالروم وعلق على هذا العمل حاشية في آخر الصفحة معناها ان العرب لم بقدروا ان يستعوضوا عن هؤلاء الموظفين فهذا اذا عجز منهم لاتساع .

وتوسع في كلامه على النصاري (٧٠) الذين دخلوا في خدمة معاوية ومنهم ابن اثال الطبيب الذي كان يتولى خراج حمص ولم يقل لنا السبب الذي كان لاجله يستعمل ابن اثال الذي كان يدس السم لكبار الامة حتى مات في زمانه كثير من اعيانها منهم عبد الرحمن بن خالد عامل حمص فكافاه معاوية بان ولاء خراجها فقوله اذا ان معاوية (٧٢) اختار استقالة خصومه لا اهلاكهم بصورة وحشية كما فعل العباسيون مسألة لاتصح على اطلاقها . ودعواه ان مؤرخي العباسيين كانوا يكتبون بلسان رسمي تحت ضغط الملوك فيه ما يقال ولا نذكر اننا راينا مؤرخاً ثقة اثبت ان العباسيين كانوا

يضطون على المؤرخين ليكتبوا لهم على الامويين ما يحبون بل على العكس شاهدناهم يذكر كل امرئ مقروناً بعمله والا في اي عصر كان يحدث الامة ابن جرير الطبري الذي كتب الحسنات والسيئات وبلغ في التجويد بذلك الى الغاية التي ليس وراءها غاية . فاذا زعم الناقد ان المؤرخين في العهد العباسي توخوا ارضاء الخلفاء فيما كتبوا فلماذا لم يكتفوا بتوخين ارضاء الخلفاء من بني العباس في حياتهم بالكف عن اجدادهم وابائهم فيوردون الفظائع التي اجترحوها غير متعنين ولا مجمعين . ودعوى المؤلف « ص ٩٥ » ان منشأ مذهب القدرية الذين استعملوا حرية النظر في الاسلام وكثروا في الشام واشتد نفوذهم كان من اختلاطهم بالسحيين مستدلاً على ذلك بان المسلمين كانوا يختلفون الى رؤساء النصارى بدمشق ويناقشونهم في هذه المسائل هذه الدعوى غير حقيقية

وقد رأينا صاحبنا يحرص جداً حرصاً على نسبة كل شيء الى سكان البلاد الاصليين وقد كرر غير مرة ان عالم فريش خالد بن يزيد الاموي تلميذ راهب ولم يقل كلمة واحدة فيما افضل فيه هذا التلميذ على الآداب العربية وكيف كان اول من ترجمت له العلوم من السريانية واليونانية والقبطية في دمشق وما هي منزلته من الخلفاء وهو عالم الامويين ومحدثهم ومستشارهم وشاعرهم ونظن عمل خالد بن يزيد هذا من التطورات المعقدة في تاريخ الامة التي تستحق ان يشار اليها ولو بسطر واحد اكثر من اخذه عن راهب علماً — علم الكيمياء — لم يكن له معرفة به او غير ذلك من الاشياء التي وردت في عرض الكتاب وغيرها احق بالذكر منها .

ومما قاله في شيخ الاسلام ابن تيمية (ج ٢ ص ٢٧) انه صاحب المذهب الارشاعي *Ecole réactionnaire* وان عمله مختل وانه كان لا يفتزع من مقالة البدع وقضى حياته وهو يسوق ابناء دينه في سبيل التعصب ونقل ما عزي الى ابن بطوطة الرحالة من ان ابن تيمية كان مختل الشعور وعلى هذا بانه قضى من اجل ذلك معظم حياته في السجن وفي الجدل بالقلم واللسان رايت شعري كيف يعتمد قول غير سبيل ربما لم يختلط بغير السوفة او ببعض المخالفين لابن تيمية ضاعت منه اوراق سياحته فكتبها له آخر - ابن جزري - وهو في بلده من ذهنه وحشاها الفث والسمين

ولا يحكم على ابن تيمية بكتبه وما قاله كبار علماء الامة من معاصريه وغيرهم فيه
واذا كان ابن تيمية الذي اراد ارجاع الدين الى نصرته وعمل في الاسلام ماعمله لوثيروس
في النصرانية بعد من دعاة التعصب المضرين فمن يكون النافع في نظر المؤلف المحترم
نحن لانتطال الى ان يكتب المؤلف على رجال الاسلام بدون نقد ولا تمحيص
ولا ان يقيد حريته في الحكم عليهم ولا نطلب منه ان يعتقد في دينهم اعتقاد اهله بل
نطلب منه ان يتصف التاريخ ويتجرد عن العواطف التي تذهب بهجة العالم حتى لا
يعد من المغالين في مذهبهم فقد قال في القرآن (١٦٢) واجازه وتفسيره وبلاغته اشياء
كان يقول بها متعصبة الادبار في القرون الوسطى وكنا نود ان لا يقدم في آراء قال
المعاصرون من غير المسلمين خلافها وفي كلامه حط من دين يؤمن به نحو ثلثائة مليون
من البشر وتاريخه يظهر بينهم وفي بلادهم .

ثم ان دعواه « ١٦٦ » ان الفقه الاسلامي قد تأثر بالفقه القديم السابق ولا سيما
بالفقه الروماني وذلك بواسطة الحقوق القانونية للكنائس المسيحية في الشرق هي دعوى
ادعاها غيره قبله ولم يأتوا عليها بحجة مقبولة معقولة ولا نرى في دحض هذه الفرية
عن فقه الاسلام الان نخيله على الرجوع الى المقالات الممتعة التي كتبها في مجلة المقتطف
(في المجلدين ٢٩ و ٣٠) صديقه وصديقتها العلامة المرحوم الشيخ سعيد الحوري
الشرطوني اللبثاني صاحب اقرب الموارد وبذلك يتبين له فساد هذا الزعم وان مصادر
الفقه الاسلامي الكتاب والسنة والاجماع والقياس ليس الا .

ومن اغرب الآراء دعواه (١٦٧ ٢٠) انه كان من انتشار المذهب الحنفي في
الهند ان اهله قاموا في العهد الاخير بنصرون الخليفة العثماني وبعاء نونه على توطيد
عمره في الاستانة لانه هو حنفي ايضاً وليس لهذه الظاهرة علاقة بالمذهب بل هي
جامعة الدين ليس الا وها انا نرى المسلم الافريقي يتأثر للملج بل باخيه الهندي او الافغاني
او الايراني دون النظر الى مذهب خاص بل الى مجموع اهل الاسلام بل ارتقى هذا
الاشتمال في الشرق من الغرب ان دخل فيه اهل كل نخلة كما هو الحال في الهند فان
براهمتهم وبجوسهم ومسلمهم سواء في كراهة الحكم الغربي والمناداة بالشرق للشرقيين .
ومعلوم ان المذاهب الاربعة المشهورة اليوم تذهب من الاسلام والاسلام يبقى اسلاماً

لان المسلمين في القرن الاول والثاني لم يكونوا احنافاً ولا شوافع ولا موالك ولا حنابلة .
والمؤلف يصف كل واحد من المشاهير بصفة فقد وصف صلاح الدين يوسف بن ايوب
بالطاع ولكنه وصف الحروب الصليبية بوفائع البسالة ! *Héroïques aventures*
ووصف السيد جمال الدين الافغاني (١٩١٠ م) بالمهيج الافغاني وكن الانصاف
يقضي عليه ان يصف ملوك الصليبيين بالاولصاف التي تليق بهم ولكنه صورهم كلهم على
الغاية من النجدة والعقل كأنهم كلهم كانوا كفر بدربك الكبير ولويس الرابع عشر
ولوانصف لستى تلك الحروب بحروب الجنون والطيش كما سماها المتصفون من مؤرخي
الصليبيين ولذكر لبعض اولئك الملوك والامراء بعض صفاتهم في نقض العبود والعبث
بالمهادنات وقتل الاسرى وغير المحاربين من الشيوخ العجزة والنساء والاطفال .

يقول روسو في اميل ارى فرقاً ضئيلاً بين توار يخكم وقصص من يأتي بقصة معروفة
ويصفاها بحسب نظره ويزينها بامور يخترعها لها ؛ يأتي بأشخاص معدومة وصور موهومة
ويجمع كذباً الى كذب ائخذ قراءة ما كتب هذا ان لم يكن القصصي يعمل بفكره الخاص
اكثر من ذلك المؤرخ المستعبد لفكر غيره والى هذا اضيف ان الاول يتوخى مقصداً
ادبياً صالحاً كان او طالحاً والاخر لا يهتم لمثل ذلك اه .

وبعد فان المؤرخ اراد ان يبنى المنقبة التي اتاها صلاح الدين وربما عدت في نظر
الغربيين من اهم اعماله الصالحة وهي ابقاؤه على الصليبيين يوم فتح القدس فلم يضع
السيف فيهم كما قتلوا هم المسلمين يوم استيلائهم عليها وقال ان عمل المسلمين عجز وخوف
ونفى الاب لامنس ما ثبت من ان الصليبيين يوم فتحوا القدس قتلوا سبعين الفا من
المسلمين (ص ٢١٢ و ٢١٣) فقال ان هذا القول مما سلم به الباحثون بدون روية
وادعى ان هذا العدد يوازي في ميزان الحق ما ادعاه مؤرخو العرب من ان الصليبيين
قتلوا في بليدة المعرة الحظيرة معرة النعمان مئة الف انسان وقال في باب الاعتذار عن
فعله الصليبيين في القدس ان هذه المدينة عومات بما تقضي به الاخلاق الحربية لذلك
العهد في معاملة المدن التي تؤخذ عنوة .

وما ندرى كيف يستطيع ان يفند اقوال مؤرخي العرب من ان الصليبيين قتلوا
في المعرة مئة الف وهل يقدر با ترى ما يراه اليوم من خراب البلاد بما كانت عليه في

القرن الخامس للهجرة وكانت مدينة المعرة التي يصفها بالبيدة الحقيرة *Bicoque* من امهات مدن الشام كنج وانطاكية وصور وعسقلان كما اكد ياقوت ولا نوازي اليوم جميع سكان هذه الخمس مدن على التحقيق ربع او ثلث سكان احداها منذ ثمانية قرون والنظر الى خطط مدينة المعرة اليوم يرى ان بعد ما بين ابوابها نحو ساعة على السائر فمدينة هكذا كانت مساحتها لا يستعظم ان تحصن فيها مئة الف من اهلها وارباضها . ولذا يصحح العقل حكمه على المعرة فلا يحكم عليها بما يراه اليوم من الخطاطها على ان الصليبيين لم يقتلوا هذا العدد الدثر باقواسهم ونشابهم ونقطهم ومخنيقهم فقط بل قتلهم صبراً وخفقوا الاطفال الرضع والنساء والعاجزين فاصبحت كأن لم تكن بالامس . وقد توسع في كلامه على نظام الصليبيين في الشام واقترار القساكين بالامر فيها حتى صورهم كأنهم دول اوربا الراقية في القرن العشرين . وبذكرنا هذا بقول مؤنسكيو ان الاب لو كرات على ما ايدته الآثار والمصانع ينكر ان البابا رخص بهذا التبدل الكبير ومن يحجه انه اذا امر بذلك فيكون عمله ظالماً . قال ومن العجب ان نرى مؤرخا يحكم على ما اتاه الناس بما كان عليهم ان يفعلوه . ولا نقوم للتاريخ على هذه الصورة قائمة في اثبات الحجة اه .

ومن الغرائب في هذا التاريخ دعوى المؤلف ان دار العلم بطرابلس (ص ٢١٥ ج ١) لم تكن مدرسة جامعة بل مدرسة صغيرة لثاقين العلم الديني وقال ومن رأينا ان حريق الجامع الاموي بدمشق سنة ١٠٦٩ هـ على عهد الفاطميين كانت اشأم على العلم من اخذ طرابلس . بيد ان المؤرخين مجمعون على ان طرابلس كان فيها دار حكمة على مثال بيت الحكمة في بغداد وقد قال الاثري العلامة فان برشم في مفكراته « ازهرت طرابلس زمن الناصي ابن عمار وقد جعلها مركزاً من مراكز التشيع وانشأ فيها بيت حكمة جهزه بمائة الف مجلد من الكتب وكانت فيها على عهده مدرسة جامعة ومدارس دينية وخزان كتب وربما كانت طرابلس قبيل استيلاء الصليبيين عليها اول بلدة علمية في الشام » . ومن غرائب الاحكام (ص ٢٦٧ ج ١) ان اليهود كانوا في الحروب الصليبية ممتعين بحقوق الوطنيين عند الصليبيين بدون اذى قيد وكانوا مساهمين للمسيحيين وشهادتهم امام القضاء تعادل شهادة المسيحي خلافاً لذلك عند المسلمين . وما نظن حضرة المؤلف الا

أطلع على ما كتبه ميشو *Michaud* في تاريخ الصليبيين وما كتبه لافيس ورامبو
Lavisse et Rambaud في التاريخ العام وما كتبه ريناخ *Reinach* في تاريخ
الاديان في سوء معاملة الصليبيين للاسراييليين في اوربا يوم انشروع بالحروب الصليبية
وابتداء هذه الفظائع الى عهد ديوان التفتيش الديني بل الى آخر ايامه فاذا استحل
الصليبيون اذ ذاك قتل اليهود واخذوا اموالهم في الغرب وعاملوهم بكل منكر في الاديان
السموية والقوانين الوضعية كيف يساوونهم بانفسهم ويجهونهم ويحسون اليهم
في الشرق . ونظن هذا من باب الخيال لا تؤيده شواهد التاريخ .

وقد بعد المؤلف عن الحقيقة كثيراً بدعواه (ص ٢٦٩ ج ١) ان دور الاكراد
الابويين كان قليل البهاء *Peu brillante période* وما ندرى لعمر الحق اي
بهاء اعظم لهذه الدولة من كون صلاح الدين وأسرته يدفعون عادية اعدائهم من
الصليبيين على قلة عددهم واسبابهم ثم تروج العلوم والمعارف في ايامهم حتى اُسست
على عهدهم معظم الجوامع والمدارس ودور القرآن والحديث والفقه والطب والهندسة
والمستشفيات والزوايا والربط والخلجان في دمشق وحلب والقدس وغيرها من البلاد
التي لم يستطع اعداؤهم استصفاءها وكما هو معظمها من حسناتهم وحسنات مواليتهم
وعتقائهم فقل لي بالله اي دولة تستطيع ان تأتي بمثل هذه الاعمال وتصلح الطرق
والجسور وتقيم القلاع وتجر المياه من القاصية تسليها الى المدن والقرى وتخفف
المكوس والضرائب عن رعاياها وتعاملهم على اختلاف نحلهم بالرفق والعطف ثم يقال
لها انها دولة قليلة الزهو خفيفة الحال .

والغالب ان المؤلف سامحه الله اصدر حكمه على هذه البلاد في عهد العرب من
اول ساعة وقاس كل ما رأى بعد ذلك على ذلك المقياس فقال عند كلامه (ص ٢٠٧
ج ٢) على الاحزاب التي نشأت في الشام لم تلبث ان اُصيبت بالخلاف والمنازعات
الشخصية وهو الارث الذي اورثها اياه ظلم ثلاثة عشر قرناً . اي ان المؤرخ لا يعترف
بانه قامت للعدل سوق في هذه الديار منذ فتحها الفاتحون من العرب ونسي او ناسى على
الاقل عهد الرشيد والمأمون ونور الدين وصلاح الدين . ففتح الاب لامس الكل بقوله .
وكنا نود لو خص في كتابه بضع صفحات بيضاء في عدل الروم والرومان في الشام لئرى

الفرق بين السابقين واللاحقين بيد انه صور العرب انهم سالة كنية في هذا القطر وفي غيره لا مدنية ولا صناعة ولا عدل ولا نظام وهذا مما لا ينطبق مع الوف من الشواهد ويكفي بان نذكره بقول سيدليو في تاريخ العرب : «لا يسم احداً ان ينكر ان الخلفاء كانوا الى القرن التاسع ليلاد سادة مملكة عظيمة زاعرة وعجيبة بازهارها وان ملوك بغداد كانوا يبعثون بالسفارات والهدايا الى الامبراطور شارلمان والى امبراطور الصين وانهم كانوا مثال العظمة الحقيقية بما انشأوه من معاهدهم الرشيدة وما بذلوه من الاخذ بايدي العلوم وان المدارس التي أنشئت في واسع ممالكهم كانت تجدد اناثة مصباح المدينة من اقصى الشرق الى اعمدة هر كول تاركة في كل مكان مصانع مدعشة من آثار الصناعة العربية ومؤازرة على تجديد دم العالم القديم .»

واصرح من ذلك ما قاله رنان^(١) : لم ننج اوربا بثة من العمل العام الذي اثرته اللغة العربية . ومعلوم مقدار الكلمات في كل المطالب التي اخذها الاسبانون والبرتغاليون من لغة جيرانهم المسلمين وفي اللغات الرومانية الاخرى عدد كبير من الكلمات العربية وكلها تعبر الا قليلا عن امور علمية او اعمال صناعية وتؤكد مبلغ الخطاط الشعوب النصرانية في القرون الوسطى عن المسلمين في العلم والصناعة اه

وقد افاض المؤلف في تاريخ لبنان حتى كاد يصح كتابه تاريخاً لهذا الجبل والكلام على سائر اقاليم الشام جاء بالعرض مع ان الوقائع المهمة في تاريخ البلاد حدثت في دمشق وحلب والقدس وحمص وغيرها من الخواضر اكثر من قرى لبنان مثال ذلك انه ذكر نجر الدين المعني بتطويل لم يبلغ شأه بعض بعض صلاح الدين بن ايوب فذكر من مزاياه انه رخص للفرنسيس ببناء خان عظيم في صيدا والفلورنسيين باقامة قنصل لهم وتوسع في الامتيازات الاجنبية ورخص للرساين الكيوشيين ان يبشوا دعوتهم في الشوف وعمرهم ادياراً وقال ان النصارى تنفوا الصعداء في عهده وبعد ان عدد للامير اللبناني ما اثر من هذا النبيل وذكر بعد نظره وجرائمه في اعماله التي ربما عدت في نظره

(١) رنان في كتابه تاريخ اللغات السامية

Ernest Renan : Histoire générale et système comparé des langues sémitiques

تهوراً في الاحايين قال انه في الحقيقة جاء قبل اوانه وسابق عصره وان هذه الصفات يجب ان تنسى معها شدته في اساليبه ويغضى عن الطرق التي عمد اليها في ادارته — ولعله يقصد بذلك الى ان الغاية تبرر الوسطة — ثم قال ان هذا النقص كان من تربيته ونشأته من المحيط الذي عاش فيه وهو محيط افسدته بضعة قرون مضت في الاستبداد على عهد العناصر التورانية قال وكان ابوه وجده ضحايا الاستبداد التركي فرائى ان يقابل الشدة بمثلاً والرشوة بما يشاكلها ولم يصل مع هذا الى المقام الذي احرز في هذا الشأن الباشاوات الاتراك (٨٤ و ٨٦ ج ٢) انظر

ونظن ماتاته الامير المعني من هذا القبيل في تقليد حكام الترك في مشاربهم الادارية ليس مما ينطبق مع قانون الاخلاق الذي هو بالطبع قانون جميع الشرائع فالقاتل اذا قتل والسارق اذا سرق والكاذب اذا كذب مع اعتقادنا بسوء ما ارتكبوا في الحال والمآل لا تقلدهم في عملهم المضر واذا فعلنا فنكون مثلهم او ارداء منهم .

ومن ذلك ما نقله عن تاريخ الامير حيدر (١٤١ ج ٢) من ان الانكشارية في سنة ١٧٩٧ انقضوا على السادة اولاد الرسول واهلكوا منهم ٣٥٠ شخصاً والحقيقة اشرف البلدة اي اعيانها وكان هناك حزبان حزب الانكشارية وحزبهم وكذلك قوله (٢١٩ ج ٢) ان الامير عمر الذي صاب في الحرب العامة مع المصلوبين من رجال البلاد هو حفيد الامير عبد القادر والحقيقة انه ابنه وقوله ان عظام الامير عبد القادر اثناء الحرب ذريت في الريح وليس هذا بصحيح بل ان قبره فقط درس ثم اعاده الاتراك الى احسن مما كان عليه . وقوله (١٨٣ ج ٢) ان الامير عبد القادر انقذ في فتنه الشام المشؤومة ١٥٠٠ مسيحي فحاول وحده ان ينقذ شرف الاسلام . والحقيقة ان الامير الكبير رحمه الله انقذ اكثر من هذا العدد وشاركه في هذا الغرض الشريف اعيان دمشق وعلاؤها وتجارها وغيرهم وقلما خلا بيت مسلمة ذي منزلة اجتماعية من فتح بابيه وصدره لحماية مواطنيه المسيحيين وحريمهم واولادهم على ما يأمرونهم بذلك دينهم .

ومن ضعف الاستنتاج في تاريخه استشهاد بيبي حميدة ابنة النعمان بن بشير الانصارية في نقزز عرب الشام من عرب الحجاز وهما :

كمول دمشق وشبانها احب الينا من الجالية

صنان لهم كصنان التيو س اعبا على المسك والغالية
 نقول شاعرة ان صحت نسبة البيتين اليها لا تكون قاعدة كلية سيفي فك عرى
 الارتباط بين العرب كما ان قول تلك الشاعرة التي قالت :

ولبس عباءة وثقر عيني احب الي من لبس الشفوف
 الى آخر الايات لا يصح قاعدة في ميل العرب كلهم لسكنى البادية والا فكيف
 غصت الشام ومصر والعراق وفارس والاندلس وشمال افريقية بالعرب فعرى تلك
 البلاد ودانت بدينهم مع طول الزمن وتخلت عن شخصاتها السابقة راضية مختارة .
 ولم يذكر المؤلف في المدارس التي نهضت بالبلاد (ص ٢٠١ ج ٢) الا
 مدارس اليسوعيين ومدرسة الدومنيكيين العالية في القدس التي تدرس الآثار
 التوراتية واللغات الشرقية . والانصاف يقضي بان تذكر المدارس الاخرى التي كان لها شأن
 مهم في انبعاث البلاد مثل المدارس الوطنية في بيروت ولبنان ودمشق وغيرها ومدارس
 الاميركان ولا سيما الجامعة الاميركية التي سبقت غيرها في تهذيب الناشئة وكان من
 افضل امثال الدكتور فاندك وورثبات وغيرهما على العرب والعربية مالا ينسى وتخرج
 بهما وباساتذة الجامعة مئات من رجال سورية قبضوا على ازمة المالية والتجارة وكان
 لهم شأن في الحركة الفكرية في الشام ومصر واميركا . وان من واجب المؤرخ ان يجرد
 عن عواطفه الخاصة فاما ان يذكر المحسنين ابا كانوا او يغلي عنهم كلهم . ولعمري ان
 دمشق مثلاً تستحق ان تذكر بكلمة في نهضتها العلمية الاخيرة خصوصاً وهي قلب الشام
 وعاصمتها منذ قرون متطاولة ونهضتها قامت بايدي ابنائها انفسهم لم تستند الى قوة
 خارجية ومعاضدة اجنبية .

هذا بعض ما رأيت ملاحظته على تاريخ العلامة اليسوعي بجزئاً به مخافة التطويل
 وذلك حرصاً على التاريخ الصحيح غير ناظر فيما كتب لمقصد سواء . واعوذني من
 هوى الغرض من مكانته ومن حب الجدل في غير محله فان وجد فيه حقاً وثقلاً بقبول
 حسن فهذا ما اتوخاه وان رأى غير ذلك فليطوّه على غره اذ الخير اردت ولا
 عصمة الا لله

محمد كرد علي

٤